المذيع

قصة جديدة

بقلم الدكتور سهيل ادريس

[مهداة الى اميل شويري : بعد خمسة اعوام من الفاجعة]

كلهم هنا كذّابون . المحطات والمذيعون ووكالات الانباء . الصحف والمحررون والمراسلون . كلهم كلهم كذابون . حتى المذيعون العرب في المحطات الاجنبية . ولكن ماهي الحقيقة يا الهي . صحيفة عربية واحدة ، بتاريخ اليوم ، او بتاريخ امس ، او بتاريخ اول من امس . رسالة من صديق . كلمة واحدة تصرخ بأنهم .. هناك .. ماضون في زحفهم ، جادّون في زحفهم . ان كل هؤلاء الناس هنا كذابون .

وعاد الى الراديو يعالجه من جديد ، فينقل إبرته بدقة وبطء تارة ، وبسرعة وعصبية تارة اخرى ، متلمساً صوت مذيع في اذاعة عربية وطنية ، مستجدياً صوتاً يقول ان الجنود العرب قطعوا كيلومتراً آخر نحو تل ابيب ، انهم لم يقفوا ، لم يترددوا ، لم يتراجعوا .. يا الهي . اين صوت القاهرة ، اين صوت القدس ، اين صوت دمشق ، بل حتى صوت بيروت ، اين هو ؟ لماذا هي اليوم غائبة ، هذه الاصوات كلها ؟ رداءة الاحوال الجوية ؟ بل إنها لرداءة هذا الراديو اللعين . يوماً يحكي وعشرين يخرس . ما اروع الصوت الذي كان ينطلق منه ، منذ اربعة ايام ، من القاهرة ، ينشر على الدنيا صفحات مجيدة ، صفحات كثيرة ملأت صدره بفرحة كبيرة لا تتسع لها الدنيا كلها . الزحف مستمر بقوة . العاصمة على بعد ثلاثه عشر كيلو متراً . الجيوش العربية توشك ان تلتقي . الكماشة يضيق طرفاها . يضيقان ، يضيقان .

ويضيق صدره هو ، حتى ليوشك من فرحه ان ينشق . فاذا هدأت النشوة ، انطلق بصره الى الافق البعيد ينسج الآمال ويرسم خطوط المستقبل . وإذن ، فسوف تنتهي المهزلة عما قريب . سيبدأ وعينا بوجودنا ، سنركز قدماً ثابتة في ارض صلبة . ثم نمشي . وقد نكون في مشينا مبطئين . ولكننا لن نبقى واقفين هكذا ، كصخرة ميتة ، والنهر من حولها متدفق صاخب . ستحيا الصخرة ، وستتحرك ، وستنقلب الى موجة ، وستنصهر الموجة في مياه النهر ، لتتدفق مثلها ، حيّة ، فتية ، رائعة .

وظل الراديو اخرس ، إلا من اصوات صفير واشتات انغام واصداء كلمات أجنبية . ثم ضجت في سمعه فجأة اصوات المذيعين العرب جميعاً ، مختلطة متضاربة . لا يميز منها حرفاً ، ولا يدرك الا انها ذات لهجة ممزقة كأنها تشتم المستمعين ، وتسب الناس . او كأنها اصوات الزعماء العرب تعلن النصر العظيم .. او كأنها اصوات الاعداء تعلن النصر الاعظم ، نصرهم هم وهزيمتنا نحن .. يا الهي . إن رأسي يكاد ينفجر . كلمة واحدة . نغمة امل . همسة رجاء . أتراهم غير كذابين ، هؤلاء المراسلين الكذابين ؟

وفتل مفتاح الراديو بشبه لا وعي . وسرعان ما تلاشى في سمعه ذلك العالم الصاخب بالضجيج ، فخرست الاصوات ، وساد غرفته الصغيرة صمت حزين ، كهذا الذي يشعر به الحي حين يودّع عروسين حبيبين ذهبا الى لقاء السعادة ، او كهذا الذي تشعر به المقبرة بعد ان تضم اليها جسد الميت ، ويخلفها اهل الميت عائدين الى دورهم صامتين .

وتلبّث لحظات حتى تمحي من عينيه آخر ظلال الموكب ، وحتى تمحي من اذنيه آخر اثارات الضجيج ، ثم التفت بالمصادفة الى طاولته ، فالفى الكتاب فاغراً فاه يدعوه . واقبل على الكتاب في إحساس من عزاء . ولكن سرعان ما اهتزت تحت عينيه الكلمات ، فاذا الصفحة كلها سوداء ، ثم اذا هي كلها بيضاء . عبثاً تحاول . يجب ان تفقد وعيك قبل ان تستطيع التفكير بشيء آخر .

واطفأ النور ، وخرج من غرفته ، وهبط السلم . وحين بلغ منتصفه فقط تساءل الى اين هو ذاهب . وبالرغم من انه لم يسمع الجواب استمر في الهبوط . ثم تكوّن هذا الجواب إحساساً غامضاً . ينبغي ان اخرج الى لا مكان . يجب ان اخرج من جلدي ، من نفسي ، من وعيي .

وسار الى لا مكان ، وألمّ بناسٍ كثيرين ، وألمّ به ناسٌ كثيرون ، ولكنه لم يرَ منهم احداً . وهو لم يدرك انه لم يرَ احداً إلا حين رأى بائعة الصحف ، على كتف مقهى « ديبون » . رأى تلك المرأة القصيرة الدميمة وهي تصيح : « فرانس سوار ، لوموند » . وشدّ ما كان صوتها نفّاذاً الى اعماقه ، حتى ظنّ انها لم تكن تقصد في صياحها سواه . وانتفض من غيبوبته .

صحف المساء . وانفتل مسرعاً يبتعد. صحف المخبرين والمراسلين الكذّابين . صحف يملكها اليهود ، ويغذّيها اليهود باكاذيبهم . صحف عاهرة . وابتعد وابتعد ، في اتجـــاه اللكسمبورغ ؛ ولكنه حين ألمّ بمقهى « الكابولاد » انفجر في اذنـــه صوت ، لا يدري أهو صوت بائعة « ديبون » يلاحقه ، ام صوت هـذه التي تبسط الصحف امام « الكابولاد » . انفجر في اذنه الصوت متحدّياً عنيفاً : « فرانس سوار ، لوموند . »

اين المفرّ بعد ؟ الى اين يمضي ؟ لقـد غرق في الاصوات . وعادت الجلبة والضجيج ترافقهما هذه المرة صفحات كثيرة من صحف عديدة ، تتطاير حوله ، وتصفق وجهه وعينيه وضميره . ثم ضغط على اعصابه ، وانفتل مرة اخرى ، ووعى انه يُـلـمّ ببائعة الصحف عند كتف « ديبون » ويبتـــاع الجريدتين ، ويطويها برفق تحت ذراعـه ، وتقوده قدماه من جديـــد نحو الفندق .

وعند باب الفندق ، التقى بانطوانيت خارجـة ، فتذكّر فجأة انهما كانا قد تواعدا على اللقاء عند الساعة الثامنة. ونظر فاذا هي الثامنة والثلث :

— معذرة يا عزيزتي ... لقد اضطررت الى التأخر عنـــد صديق .

وقرأ في عينيها انها لم تبتلع الكذبة . ولكنه اصطنـع اللامبالاة ، واخـــذ بذراع انطوانيت ، فرقي بها السلّم الى غرفته . وكان شعـــوره المباغت بالسعادة يتفاقم كلّما ارتقى درجة . ولم يدرك إلا بعد وقت طويل ان مبعث هذه السعادة انما هو خروجه من نفسه . لقد انتزعته انطوانيت من دنيـاه ، وجذبته الى دنياها ، دنيا شفتيها الملتهبتين وجسدها الحارّ . ما كان لمثل ذلك العذاب ان يزول ، لو لم تقتـــله لذة جسدية طاغية . لذة يحجب طنينها في السمع كل صوت داخلي . لذة تستقطب حولها كل إحساس ، وكل فكرة وكل وجود .

وشعر بانه يُلحّ على انطوانيت ، كما لم يُلحّ من قبل قط ، بان تبيت الليلة عنده ، كأنما كان يخشى ، ان هي غادرته ، ان يستغرق من جديد في دنياه . ولعله شعر للمرة الاولى ، منـذ ان كان يعرف انطوانيت ، ان حبه لها يتعدى الصـلة المادية ، ويتسامى بصلة روحية نامية . لقد أحسّ بذلك ساعة ذوّب في عينيها نظراته ، واوشك ان يُفلت من بين شفتيه تلك العبـارة التي كانت تترقبها انطوانيت بانتظار مسعور . لقد كاد يطلب يدها للزواج ؛ الا انها كانت قد استسلمت بين ذراعيـــه الى الرقاد .

★

واستمرت هذه الغيبوبة طوال اليـوم التالي الذي قضـاه بصحبة انطوانيت . فقد انطلق بها في الصبـــاح الباكر الى « فرســـاي » فزارا قصرها العظيم و « التريانون الكبير » و « التريانون الصغير » ومتاحف الرسم والنحت ، وعاشا ساعات طويلة في تاريخ فرنسا .

ولكنه ادرك عند الأصيل انه لن يستطيع طويلا ان يكذب على نفسه . او لعله قد استنفد السعـادة التي بين يديه ، فطلب العودة الى واقعه .

وعاد الى هذا الواقع ، ساعة وصل الى حيـه في باريس ، واشترى « فرانس سوار » فقرأ فيها ان الحكومات العربيـة امتثلت لقرار مجلس الامن ووقعت الهدنة مع اليهود .

قرأ ذلك هادئاً ، مطمئناً ، كأنما هو اجنبي ، او كأنمـــا شعوره قد تعطـــل وتبلد . وتابع تفاصيل الاخبار بدافع الاستمرار .

— يظهر انك نسيت يا عزيزي انني هنا .

حقاً نسيت يا عزيزتي . عفوك يا انطوانيت . انت اغـلى عندي من كل شيء . ليس غيرك من يستحق الاهـتمام . تعالي إلي ايتها الحبيبة ، وهات شفتيك . ان قبلة منهما تعدل كل شيء في الدنيا . تعدل اولئك كلهم . تعدل الزعماء والقادة والجنود . تعدل العرب جميعاً . ان في قبلتك مذاقاً . اما هم فليس لحياتهم كلها اي مذاق . ليس لحياتنا كلها نحن العرب معنى بعدُ . تعالي الي . ما انضر هذا الجسد ، وما اشهى هذا الصدر .

وتركته انطوانيت يحتضنها وهي تضحك بجذل . ثم تناولت الصحيفة ، ومرت سريعاً بعينيها على العنوان الرئيسي :

— لقد وقف القتال إذن في فلسطين؟ ولكن لماذا يا عزيزي؟ اما كان العرب منتصرين ؟ لماذا قبلوا بالهدنة ؟ ألا تعتقد ...

وازعجه هذا السيل من الاسئلة ، فأشاح بوجهه وهو يقول:

— دعْك من ذلك يا عزيزتي . انه لا يستحق الاهتمام ...

فألحّت عليه وراحت تسائله :

— بل قل لي . هل انت راضٍ بذلك ؟

فاغتصب ضحكة :

— انا ؟ وأي شأن لي بذلك ؟

فقالت ، وقد اتسعت عيناها من العجب :

— كيف ؟ من له اذن شأن بذلك ؟

فانفجر ضاحكاً وهو يقول :

— هتلر ! هتلر الذي كان ينبغي ان ينتصر !

فانتفضت الفتاة ، وتخلصت من ذراعيه ، وحين نظر اليها ، كان الاحمرار يصبغ وجهها .. وان هي الا لحظات حتى انفجرت غاضبة :

— ليس لك الحق بان تتحدث عن هتلر .. انك لم تعش هنا في المقاومة لتدرك إجرام النازية .. وانك تهين كل فرنسي حين تشير الى هتلر اشارة مدح ، او تتمنى ان يكون قد انتصر...

وما كان بحاجة الى من يثير اعصابه . فهو منذ يومين يحاول ان يربط هذه الاعصاب الثائرة ، وهو يشعر بانه من جراء ذلك يختنق . وقد نهض ، فأمسك بذراع انطوانيت بقوة وهو يقول :

— هدّئي اعصابك ، وحاولي ان تفهمي مقصدي . ان لك مطلق الحرية في ان تعتنقي الرأي الذي ترين . وان لي مثل ذلك على ما اظن . انك تنظرين الى القضية من زاوية قوميتك ، وانا انظر اليها من زاوية قوميتي . تكرهين هتلر لأنه سام الفرنسيين العذاب والهوان ، واحبه لأنه اضطهد اليهود ... وكنت أحبه اكثر لو تمكن من ان يتابع عمله في اجتثاث اصول هذا العنصر الذي يفسد الدنيا كلها !

وقاطعته انطوانيت بلهجة من يرفض الاقتناع :

— انني امنعك مرة اخرى من ان توجه لنا نحن الفرنسيين اية اهانة بمدح هتلر او النازية المجرمة . انه سواء لدينا ان ينتصر العرب او اليهود في فلسطين !

ولم يُطق صراخ هذه الفتاة . ما اقبح المرأة إذ تصيح . ونهض على مهل ، فرجاها بان تدعه وتخرج حتى تهدأ اعصابها او تهدأ اعصابه هو ، ولكنها نفرت منه وقذفت وجهه بعبارتها :

— سوف اخرج .. ولن اعود اليك على الاطلاق . ولكن هذا لا يمنعني من اقول انك شرقي متوحش !

وصفعها صفعتين ، ثم حملها بين ذراعيه ودفع بها الى الخارج .

وظل صراخها يتعالى خلف الباب الموصد بضع دقائق ، ثم سمع صوت اقدامها تهبط السلم . وجلس على كرسيه ملتاث الفكر .

ليتني كنت متوحشاً . ليتنا جميعاً ، نحن الشرقيين ، متوحشون . إذن لاستطعنا ان ندرأ بوحشيتنا هؤلاء الذين اقبلوا يغتصبون بلادنا ، واولئك الذين يظاهرونهم على هذا الاغتصاب . ولكن اي هذيان هذا ! اصحيح ان كل ذلك قد وقع ؟ اصحيح ان القتال قد توقف ؟ اصحيح ان الامر قد انتهى ؟ اصحيح ان الاحلام كلها قد ضاعت ؟

ومرة اخرى ، وقع بصره على الصحيفة . لا ، ليسوا بكذابين ، وانما اولئك هم الكذابون . انهم في اهلي وعشيرتي وقومي ، معظمهم جبناء ، معظمهم خونة .

ثم اظلم كل شيء في عينيه ، وشعر بان جدران غرفته تضيق حوله وتضيق حتى تخنقه ، ثم تتسع وتتسع حتى يداخله خوف شديد من اتساعها . واحس بان رأسه ثقيل ثقيل يكاد جسمه كله يرزح تحت عبئه . ولم يكن يفهم ما الذي يضطرب الآن في ذلك الرأس . كان يودّ لو ان باستطاعته ان يشقه ويقف على ما يفكر به . وبات لا يدري اهو فارغ ام مثقل ، وهل هو يعمل ام انه معطل .

ثم اعتراه في صدره ضيق شديد ، وشعر ان بوده ان يمزق ثوبه ، ويجرّح جلده باظافره ، ويلطخ يديه بدمه . ثم ضاقت الجدران من جديد ، وامتلأت عيناه بالظلام .

وافاق على يد تهزّ كتفه ، ونظر فاذا هو حمدي ، واقف فوق رأسه ، وفي عينيه القلق والضيق ، وسأله إن كان يشكو شيئاً ، فلم يجب ، ورأى حمدي فجأة ينحني فوقه ويحاول ان يرفعه من كتفيه ، وحين استوى في سريره ، نظر الى حيث كان حمدي ينظر ، فرأى ان غطاء سريره كان ملطخاً بالدم .

وسرعان ما انفجر باكياً كالطفل .

وتلقاه حمدي بين ذراعيه ، وادرك هو ان صديقه العراقي كان يردّ على كلامه حين كان يقول :

— لا .. انك مخطيء .. اننا لم نخسر .. ان فلسطين لم تضع . سيستأنف العرب القتال ، وسيتمون النصر الى آخره . هديء روعك ايها الصديق . انك تبالغ في يأسك .

ثم شعر بيد صديقه تضمد جراح رأسه ، فشعر إذ ذاك فقط بألم في رأسه ، في كل جزء من رأسه ، كأنما سقطت عليه اثقال من حديد ، او كأنما دق هذا الرأس دقاً عنيفاً بجدران ضيقة ، وشعر بان دموعه ما انفكت تسيل على خديه ، بالرغم من انه كان يجهد في امساكها . وشعر بان دمعة تبلغ شفتيه ، فأحس لها بمذاق مرير لم يذهب به الا مذاق النبيذ الذي استحضره حمدي لتوّه ، وأنشأ يصب له ولنفسه منه الكؤوس .

وقد شرب مع حمدي تلك الليلة كؤوساً كثيرة ، فثملا وعربدا . ثم رأى حمدي يتقيأ على بساط الغرفة ، فشعر بانه لم يكن هو نفسه الا نقطة رشاش من هذا القيء الكثير .

★

وضعف اهتمامه بعد ذلك بسائر فصول الرواية ، فراح يتابعها بنفسية لاعب خاسر ينظر الى اللاعبين يتسلّون فيما بينهم. وظلّ جامداً حين بلغته انباء استئناف القتال ، انباء مضيّ الزعماء في تدجيلهم على شعوبهم ؛ وظلّ جامداً حين بلغته انباء الهدنة الثانية ؛ وظل جامداً حين بلغته انباء هزيمة الجيوش العربية . وايّ شيء كان جديراً بقتل جموده ، وبهزّ ضميره الميت ؟

كان يشعر بالخجل اذ يمشي في شوارع باريس ، ويشعر بالخجل اذا رأى عربياً من بعيد ، او التقى بعربي عن قريب ، ويشعر بالخجل إذا رأى اجنبياً ، كأن كل اجنبي كان ذلك اليهودي المنتصر . وزهد في كل شيء : في اللقمة والفرحة والحب ، وحتى في الحرف الذي أضنى بسواده عينيه طوال اربع سنوات .. ما نفع هذا الحرف في بلادٍ مات فيها كل شيء ؟ حبّذا لو لم يأت الى الغرب ، وظلّ في بلاده ، يسوق الحياة التي يسوقها الناس جميعاً ، بل تلك التي يسوقها الزعماء .. ما كان يمنعه من ان يصبح زعيماً بينهم ؟

ولكن الامر لم يكن بيده . فهو قد اتى ليفتح في حياته افقاً جديداً . وها هو الآن قد انهى دراسته ، ونظر الى المستقبل يستشرف افقه المرتجى ، فاذا المجرمون قد حطموا له مستقبله ، مستقبل ملايين الشباب ، واطفأوا مصباح امله ، امل ملايين الشباب .

ورجع الى وطنه بالطائرة دون ان ينبيء احداً بمجيئه . وحين نظر الى قومه حوله يروحون ويجيئون ، اشتد شعوره بالخجل من نفسه .

وحين دخل الى غرفته في بيته ، في مسقط رأسه ، عزم على ان يبدأ صراعه . وكانت المرحلة الاولى في هذا الصراع ان يميت نفسه القديمة ، ان يقتلها بكل اجوائها ، بكل معتقداتها ، بكل ما كان يعيش فيها ، بكل من كان يعيش في كنفها . وكان ينبغي له قبل كل شيء ان يقتل الثقة بزعمائه وحكامه ، ليقتل نفسه القديمة .

ويوم يحقق ذلك فقط ، يستطيع ان يولد من جديد .

سهيل ادريس

انتظار ...

•

صلّي لأجلي !
عبر أسوارِ
وطني الحزين ، الجائع ، العاري
وعلى رصيف المرفأ انتظري
— يا كوكبي الساري
وحديث سُماري —
قلبي مياهُ البحر ، تحملُه
تفاحةً حمرا ... كتذكار
وعبيرُ آذار
ورفاق أسفاري
يتلمسون طريق عودتهم
ورسائلي وأبي وأزهاري
وكلبنا الضاري
يعوي ، وعينا شيخ حارتنا
مصلوبتان ، على لظى النار
وشجيرة الليمون يسرقها
مهما تعالت ، صبية الجار
وكقبراتِ الصبح ، هانئةً
والموتِ والثار
ستظل افكاري
تعلو وتعلو عبر أسوار
وطني الحزين ، الجائع ، العاري
وانا واطماري
في غربة الدار
وحدي بلا حبٍ وتذكار

[بغداد] **عبد الوهاب البياتي**